وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلّا الله[١٩].

فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً[٢٠].

= الربوبية وحده لا يكفي ولا يدخل من أقرّ به في الإسلام.

ومعرفة ذلك أمر مهم جداً إذ به يعرف التوحيد والشرك والإسلام والكفر. والجهل بذلك ضرره عظيم وخطره كبير لأن الإنسان قد يخرج من الإسلام وهو لا يدري.

[١٩] أي معنى لا إله إلّا الله هو توحيد الألوهية لا توحيد الربوبية لأنه لو كان معناها توحيد الربوبية لما قال الرسول ﷺ للمشركين قولوا لا إله إلّا الله لأنهم يقولون إن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت وإنه حينئذٍ يطلب منهم ما هو تحصيل حاصل ويقاتلهم على شيء يعترفون به ويقرون به؛ وهذا القول باطل.

[٢٠] هذا تعليل لما سبق في تقرير معنى لا إله إلّا الله وأنه توحيد الألوهية لأن الإله عند مشركي العرب هو الذي يقصد لقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفان وليس الإله عندهم هو الذي يخلق ويرزق ويدبر ليس هذا هو الإله عندهم فالشرك عندهم لم يقع في توحيد الربوبية وإنما وقع في توحيد الإلهية.

لم يريدوا أنّ الإلٰه هو الخالق الرازق المدبِّر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قدمت لك وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ «السيد»[٢١].

فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: لا إلٰه إلّا الله، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها[٢٢].

---

[٢١] أي ليس الإلٰه عند المشركين الأولين هو الخالق الرازق المدبر لأن هذا معنى الرب، وفرق بين معنى الرب ومعنى الإلٰه وفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإنما يعنون بالإلٰه ما يعني المشركون في زماننا أي زمان المؤلف بلفظ السيد وإلى الآن يسمون هؤلاء الذين يدّعون صلاحهم ويتقربون إليهم يسمّونهم السادة كالسيد البدوي والسيد الرفاعي والسيد التيجاني، إلى غير ذلك يعتقدون أن هؤلاء السادة لهم منزلة عند الله تؤهلهم أن يتوسطوا لهم عند الله وتؤهلهم أن يُدعوا من دون الله ويذبح وينذر لهم ويطاف بقبورهم ويتبرك بها. فالمشركون الأولون يسمون هذه الأشياء آلهة والمشركون المتأخرون يسمون هذه الأشياء وسائط ووسائل وشفعاء والأسماء لا تغيّر الحقائق فهي آلهة.

[٢٢] أي أن النبي ﷺ دعا المشركين إلى تحقيق معنى: لا إلٰه إلّا الله التي هي كلمة التوحيد، ومعناها: لا معبود بحق إلّا الله وهو الذي بعث الله به رسوله إلى المشركين ولم =

= يبعثه إليهم يدعوهم إلى توحيد الربوبية لأنهم مقرّون به وهو لا يكفي، لأنه قاتلهم وهم يقرون به، ومن قال إنه يكفي فإنه يلزم عليه تغليط الرسول وأنه قاتل أناساً مسلمين يعترفون بلا إلٰه إلّا الله إذا فسرناها بتوحيد الربوبية وهو الإقرار بالخالق الرازق القادر على الاختراع. ومع الأسف هذا التفسير الخاطئ للا إله إلّا الله موجود في كتب العقائد التي ألّفها علماء الكلام وعلماء المنطق من المعتزلة والأشاعرة والتي تدرّس في كثير من المعاهد الإسلامية الآن. وعقائدهم مبنية على هذا الرأي وأن الإلٰه معناه القادر على الاختراع فمن اعترف أن الله هو الخالق الرازق يعتبر موحداً وأما من اعتقد أن أحداً يخلق أو يرزق مع الله فهذا هو المشرك عندهم مع أن الشرك إنما وقع في توحيد الألوهية ولم يقع في هذا وليس هذا هو معنى لا إلٰه إلّا الله.

وإنما معناها: لا معبود بحق إلّا الله فمن قال: لا إلٰه إلّا الله وجب عليه أن يُفْرد الله بالعبادة وأن يترك عبادة ما سواه، فإن المقصود من هذه الكلمة معناها والعمل بمقتضاها لا مجرد النطق بها دون عمل بمعناها ومقتضاها، فمن قالها وهو يعبد غير الله لم يكن عاملاً بمقتضاها وهو ترك الشرك، ولا ينفعه مجرد النطق بها لأنه قد ناقض فعله قوله، والمشركون الأولون لما سمعوا هذه الكلمة عرفوا معناها وأنه ليس المقصود التلفظ بها فقط ولذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]. =

والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه فإنه لما قال لهم: قولوا: لا إلٰه إلّا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[٢٣].

= وفي وقتنا هذا وجد من يفسّر لا إلٰه إلّا الله بأن معناها هو إفراد الله بالحاكمية وهذا غلط. لأن الحاكمية جزء من معنى لا إلٰه إلّا الله وليست هي الأصل لمعنى هذه الكلمة العظيمة، بل معناها لا معبود بحق إلّا الله بجميع أنواع العبادات ويدخل فيها الحاكمية ولو اقتصر الناس على الحاكمية فقاموا بها دون بقية أنواع العبادة لم يكونوا مسلمين، ولهذا تجد أصحاب هذه الفكرة لا ينهون عن الشرك ولا يهتمون به ويسمونه الشرك الساذج، وإنما الشرك عندهم الشرك في الحاكمية فقط وهو ما يسمونه الشرك السياسي، فلذلك يركزون عليه دون غيره، ويفسرون الشرك بأنه طاعة الحكام الظلمة.

[٢٣] أي الكفار يعرفون معنى لا إلٰه إلّا الله ولهذا لما قال لهم ﷺ قولوا لا إلٰه إلّا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ولما قال لهم قولوا لا إلٰه إلّا الله قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٦ ـ ٣٧] فهم فهموا معنى لا إلٰه إلّا الله وأبوا أن يعترفوا به لأنه يُلزِمُهم بترك عبادة الأصنام وهم لا يريدون هذا، وإنما يريدون البقاء على عبادة =

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممَّن يدّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة. بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني[٢٤].

= الأصنام. ولم يجرؤوا أن يقولوا لا إله إلّا الله ويبقوا على عبادة الأصنام لأن في هذا تناقضاً وهم يأنفون من التناقض، في حين أن كثيراً من المنتمين إلى الإسلام اليوم لا يأنفون من هذا التناقض فهم يقولون لا إله إلّا الله بحروفها ولكنهم يخالفونها ويعبدون غير الله من القبور والأضرحة والصالحين بل والأشجار والأحجار وغير ذلك. فهم لا يفهمون معنى لا إله إلّا الله.

فلا يكفي التلفظ بلا إله إلّا الله دون علم بمعناها وعمل بمقتضاها.

بل لابد من العلم بمعناها أَوَّلاً ثم العمل بمقتضاها لأنه لا يمكن أن يعمل بمقتضاها وهو يجهل معناها ولهذا يقول جل وعلا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، فالذي يجهل معنى لا إله إلّا الله لا يمكن أن يعمل بمقتضاها على الوجه الصحيح.

[٢٤] هذا من أعجب العجب أن جهال الكفار والمشركين في عهد النبي ﷺ يعرفون أن معنى هذه الكلمة هو إخلاص العبادة لله وترك عبادة غيره فلذلك امتنعوا عن النطق بها =

والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلّا الله[٢٥].

= تحاشياً لترك عبادة آلهتهم وتعصباً لباطلهم؛ ومن يدعي الإسلام اليوم لا يفهم أن معنى هذه الكلمة هو ترك عبادة القبور والأضرحة وإخلاص العبادة لله، فلذلك صار يقولها وهو مقيم على شركه لا يأنف التناقض والجمع بين الضدين فصار جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلّا الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم. وصار هذا المدعي للإسلام يظن أن المراد بهذه الكلمة هو النطق بحروفها من غير اعتقاد لمعناها فصار يردد معها دعاء الموتى والمقبورين ليلاً ونهاراً.

[٢٥] كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمُرية. وغيرها[١] عن علماء الكلام أن الإله عندهم هو القادر على الاختراع يعني هو الذي يقدر على الخلق والرزق والإحياء والإماتة ويبنون عقائدهم على هذا ويفسرون لا إله إلّا الله بهذا المعنى ويجعلون التوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبية وهذا غلط عظيم.

فإذا كان هذا حال العالم منهم فكيف بالجاهل؟ وما هذا إلّا من قلة الاهتمام بدعوة التوحيد وتقليد الآباء والأجداد والاكتفاء من الإسلام بمجرد الانتساب لأغراض وأهداف دنيوية الله أعلم بها. من غير تعرّف على الدين الحقيقي الذي أساسه التوحيد الخالص.

---

(١) انظر التدمرية ص١٨٥ تحقيق الدكتور محمد بن عودة السعوي، ومجموع الفتاوى ١٣/ ٢٠٣.

فلا خير في رجل جُهَّالُ الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلّا الله[٢٦].

إذا عرفت ما قلت لك معرفة قلب[٢٧]،

وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ

---

[٢٦] لا خير في رجل يدعي الإسلام بل يدعي أنه من أهل العلم ولا يفهم معنى لا إله إلّا الله وقد فهمها كفار قريش وعرفوا معناها.

إن الأمر خطير، والعار شنيع، والواجب على المسلمين أن ينتبهوا لدينهم ويتأملوا دعوة نبيهم ويفقهوا دينهم فقهاً صحيحاً ويقيموه على أساس سليم من عقيدة التوحيد والبراءة من الشرك وأهله، ولا يكتفوا بمجرد التسمي والانتساب إليه مع البقاء على الرسوم والعادات المخالفة له، وترديد عبارات جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع.

[٢٧] أي إذا عرفت ما ذكرت لك من الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وعرفت أن المشركين أقروا بالأول وحجدوا الثاني فلم يدخلهم في الإسلام وقُتِلُوا واستُحِلَّت دماؤهم وأموالهم، إذا عرفت هذه الأمور معرفة قلب لا معرفة لسان فقط كأن يحفظ الإنسان هذا المعنى ويُؤديه في الامتحان وينجح فيه ولم يتفقّه فيه في قلبه ويفهمه تماماً فهذا لا يكفي. فالعلم هو علم القلب وعلم البصيرة لا علم اللسان فقط.

أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢٨] [النساء: ٤٨]،

وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أوَّلهم إلى آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه[٢٩]،

---

[٢٨] أي الشرك في العبادة لا الشرك الذي هو اعتقاد أن أحداً يخلق ويرزق ويدبر مع الله بل الشرك الذي حذّر الله منه هو اعتقاد أن أحداً يستحق العبادة أو شيئاً من العبادة مع الله.

فالشرك هو دعوة غير الله معه أو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، هذا هو الشرك الذي حرمه الله وحرم على صاحبه الجنة وأخبر أن مأواه النار. وهو الشرك الذي يحبط جميع الأعمال وهو الشرك في الألوهية وليس الشرك في الربوبية، وهذا تنبيه من الشيخ رحمه الله إلى أنه كما تجب معرفة التوحيد تجب معرفة الشرك.

[٢٩] دين الرسل هو الإسلام وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله هذا هو دين الرسل وهذا هو الإسلام. وأما الانتساب إلى الإسلام في الظاهر دون الباطن أو الانتساب إليه بالتسمي فقط دون التزام لأحكامه، أو الانتساب إليه مع ارتكاب ما يناقضه من الشرك والوثنيات، أو الانتساب إليه مع الجهل بحقيقته، أو الانتساب إليه دون موالاة لأوليائه ومعاداة لأعدائه فليس هذا هو الإسلام الذي جاءت به رسل الله. وإنما هو إسلام اصطلاحي مصطنع لا يغني ولا ينفع عند الله سبحانه وتعالى، وليس هو دين الرسل.

وعرفت ما أصبح غالب النَّاس فيه من الجهل بهذا[٣٠].

أفادك فائدتين: الأولى: الفرح بفضل الله ورحمته كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨] وأفادك أيضاً الخوف العظيم[٣١].

---

[٣٠] وهو الجهل بالتوحيد والجهل بالشرك. هذا هو الذي أوقع كثيراً من الناس في الضلال وهو أنهم يجهلون التوحيد الصحيح ويجهلون الشرك ويفسرون كلاً منهما بغير تفسيره الصحيح، هذا هو الذي أوقع كثيراً من الناس في الغلط والكفر والشرك والبدع والمحدثات إلى غير ذلك، وذلك بسبب عدم معرفة ما أمر الله به من توحيده وطاعته، وما نهى عنه من الإشراك به ومعصيته فالعوام لا يتعلمون، وغالب العلماء مكبون على علم الكلام والمنطق الذي بنوا عليه عقيدتهم وهو لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً بل هو كما قال بعض العلماء: (لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل به)(١).

[٣١] أي العلم بهذه الحقائق يفيدك فائدتين:

الفائدة الأولى: أنك تفرح بفضل الله حيث مَنَّ عليك بمعرفة الحق من الباطل فإنها نعمة عظيمة، حُرِمَ منها الكثير من الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وفضل الله هو =

---

(١) انظر كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣ (بنحوه).

= الإسلام، ورحمته هي القرآن ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ فرح شكر واعتراف بالنعمة. والفرح بفضل الله مشروع لأنه شكر لله سبحانه وتعالى على نعمة التوحيد ومعرفة الشرك وهذه نعمة إذا وُفّقت لها فإنه قد جمع لك الخير كله والفرح بالنعمة مشروع، أما الفرح المنهي عنه فهو الفرح بالدنيا كما قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] فالفرح بالدنيا وحُطَامها والفرح بالباطل كما قال تعالىٰ في أهل الباطل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ مذموم أما الفرح بالدين والفرح بالعلم النافع فهذا مشروع لأن الله أمر به.

والفائدة الثانية: أنك إذا عرفت التوحيد الصحيح وعرفت الشرك القبيح فإن ذلك يُفيدك الخوف أن تقع فيما وقع فيه كثير من الناس بالمخالفة لهذا الأصل والوقوع في الشرك وأنت لا تدري فلا تأمن على نفسك من الفتنة فلا تغتر بعملك أو بفهمك، ولكن قل لا حول ولا قوة إلّا بالله واسأل الله الثبات، فإن إبراهيم الخليل الذي أعطاه الله من العلم واليقين ما لم يعط غيره يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦] فإبراهيم لم يأمن على نفسه الفتنة مع علمه ويقينه وهو الذي كسَّر الأصنام بيده وألقي في النار بسبب ذلك، ومع هذا يخاف على نفسه من الفتنة، فلا تغتر بعلمك وتأمن على نفسك من الفتنة ولكن كن دائماً على حذر من الفتنة بأن لا تزلّ بك القدم وتغتر بشيء يكون سبباً لهلاكك وضلالك، فإن بعض المغرورين اليوم يقول إن الناس تجاوزوا مرحلة =

فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل[٣٢].

= الجهل والبدائية وصاروا مثقفين واعين لا يتصور أن يعودوا للوثنية، أو نحواً من هذه الكلام الفارغ، ولم يفطن لعبادة الأضرحة التي تنتشر في كثير من البلاد الإسلامية ولم ينظر فيما وصل إليه كثير من الناس من الجهل بالتوحيد.

[٣٢] قد يقول الإنسان كلمة من الكفر تُحبط عمله كله كالرجل الذي قال: «والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله جل وعلا: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان. إني قد غفرت له وأحبطت عملك»(١) كلمة واحدة تجرأ فيها على الله وأراد أن يمنع الله أن يغفر لهذا المذنب، فالله جل وعلا أحبط عمله وغضب عليه. والإنسان قد يتكلم بمثل هذه الكلمة ونحوها فيخرج من دين الإسلام، فالذين مع النبي ﷺ لما قالوا ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً وأكذب ألسناً وأجبن عند اللقاء يزعمون أنهم قالوها من باب المزح ويقطعون بها الطريق بزعمهم قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾(٢) [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦] دل على أنهم مؤمنون =

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٤/٢٠٢٣ كتاب (٤٥) البر والصلة والآداب (٣٩) باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى حديث رقم ١٣٧ ـ (٢٦٢١). من حديث جندب رضي عنه.

(٢) انظر جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ١٠/١٩ ـ ٢٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٣٥١ ـ ٣٥٢، وأسباب النزول للواحدي ١٨٧ ـ ١٨٨.

وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى كما كان يظن المشركون[٣٣].

خصوصاً إن ألهمك الله ما قصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم، أنهم أتوه قائلين: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فحينئذٍ يعظم حرصك وخوفك على ما يخلّصك من هذا وأمثاله[٣٤].

= في الأول فلما قالوا هذه الكلمة كفروا والعياذ بالله مع أنهم يقولونها من باب المزح واللعب.

[٣٣] أي يقول كلمة الكفر وهو يظن أنها تقربه إلى مثل ما يقول المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

[٣٤] قوم موسى هم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى خرجوا معه من مصر حيث أمره الله أن يخرج بهم فراراً من فرعون فخفي عليهم هذا الأمر مع أنهم علماء وفيهم صلاح وتقوى وخرجوا مع موسى مقاطعين لفرعون وقومه فلما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم أرادوا تقليدهم في ذلك وطلبوا من موسى فقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فأنكر عليهم موسى هذه المقالة وأخبرهم أن عمل هؤلاء القوم شرك بالله عز وجل فانظر كيف خفي عليهم هذا الأمر مما يدل على خطورة الجهل بالتوحيد وعدم معرفة حقيقة الشرك مما يسبب أن الإنسان قد يقول الكلمة التي تقتضي الكفر والخروج من الدين وهو لا يدري. ولا يخلصك من هذا وأمثاله إلّا العلم النافع الذي =

واعلم أن الله تعالى بحكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلّا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣][٣٥].

= به تعرف التوحيد من الشرك، وتحذر به من القول أو الفعل اللذين يوقعانك في الشرك من حيث لا تدري. وهذا يدل على بطلان قول من يقول: إن من قال كلمة الكفر أو عمل الكفر لا يكفر حتى يعتقد بقلبه ما يقول ويفعل. ومن يقول: إن الجاهل يعذر مطلقاً ولو كان بإمكانه أن يسأل ويتعلم، وهي مقالة ظهرت ممن ينتسبون إلى العلم والحديث في هذا الزمان.

[٣٥] حكمة الله تعالى في هذا تتلخص في أمرين:

الأمر الأول: أنه مَا بَعَثَ نبياً من أنبيائه إلا جعل له أعداء من المشركين كما في الآية التي ذكرها المؤلف وكما في الآيـــــة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١] ولله في ذلك الحكمة من أجل أن يتبين الصادق من الكاذب، ويتبين المطيع من العاصي. إذا بعث الأنبياء يدعون إلى الهدى صار هناك دعاة للضلال من أجل أن يمتحن الناس أيهم يتبع الأنبياء وأيهم يتبع دعاة الضلال، ولولا ذلك لكان النّاس كلهم يتبعون الأنبياء ولو في =

= الظاهر ولا يتميز الصادق في اتِّباعه من المنافق لأن الأنبياء يتّبعهم المؤمن الصادق ويتبعهم المنافق الكاذب، والذي يميز هذا من هذا هو الابتلاء والامتحان، فالشدائد هي التي تبيّن الصادقين من المنافقين فالله جعل أعداءً للأنبياء لحكمة من أجل الابتلاء والامتحان ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧] هذه هي الحكمة بأن الله جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن، والشيطان هو المارد العاصي فكل من تمرد عن طاعة الله فإنه شيطان سواء كان من الجن أو من الإنس، حتى الدواب المتمردة تسمى شيطاناً وهو من شاط الشيء إذا اشتد أو من شطن إذا ابتعد، فالشيطان يكون من عالم الجن ويكون من عالم الإنس، وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأنعام: ١١٢] الزخرف في الأصل الذهب وزخرف القول هو القول المموّه المزوّر، لأجل أن يغر الناس. فالقول المزخرف هو الباطل المغلّف بشيء من الحق وهذا من أعظم الفتنة لأن الباطل لو كان مكشوفاً ما قبله أحد لكن إذا غُطي بشيء من الحق فإنه يقبله كثير من الناس وينخدعون بهذه الزخرفة، فهو باطل في صورة الحق، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ الله قادرٌ على منعهم من ذلك لكنه شاء أن يفعلوه من أجل الابتلاء والامتحان.

وإذا كان هذا مع الأنبياء فكيف بغيرهم من الدعاة إلى الله وعلماء التوحيد فأتباع الأنبياء أيضاً يكون لهم أعداء من دعاة الباطل في كل زمان وفي كل مكان. هذا مستمر في الخلق وجود دعاة الحقّ وإلى جانبهم دعاة الباطل في كل زمان ومكان.

إذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق إلى الله تعالى لابد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧][٣٦].

الأمر الثاني: وهو العجيب أن دعاة الباطل يكون عندهم علوم وعندهم كتب وعندهم حجج يجادلون بها أهل الحق كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ [غافر: ٨٣] يعني الكفار ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الحقائق البيّنة والعلم النافع ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي توارثوه عن أجدادهم وآبائهم والذي هو عبارة عن كتبهم وعن حججهم التي توارثوها، وهذا واقع الآن، فكم في الساحة من كتب أهل الباطل ككتب الجهمية، وكتب المعتزلة، وكتب الأشاعرة، وكتب الشيعة كم في الساحة من كتب هؤلاء! وعندهم حجج مركبة ومزيفة تغر الإنسان الذي ليس عنده تمكن من العلم فعلم الكلام وعلم المنطق اعتمدوه وجعلوه هو العلم الصحيح الذي يفيد اليقين.

[٣٦] أما أدلة القرآن والسنة فهي حجج ظنية بزعمهم لا تفيد اليقين وهذا من تمام الفتنة والتزييف على الناس. لأن الواقع الصحيح هو العكس وهو أن أدلة القرآن تفيد اليقين، وأدلة المنطق والجدل تفيد الشك والحيرة =

ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيت إلى حججه وبيّناته فلا تخف ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦][٣٧].

= والاضطراب. كما أقر بذلك كبراؤهم عند الموت أو عند توبتهم ورجوعهم عن علم الكلام.

إذا كان هؤلاء عندهم فصاحة وعندهم حجج وعندهم كتب فلا يليق بك أن تقابلهم وأنت أعزل بل يجب عليك أن تتعلم من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ ما تبطل به حجج هؤلاء الذين قال إبليس إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لبني آدم ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الطريق الموصل إليك ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]. تعهد الخبيث أنه سيحاول إضلال بني آدم وكذلك أتباعه من شياطين الإنس من أصحاب الكتب الضالة والأفكار المنحرفة يقومون بعمل إبليس في إضلال الناس.

[٣٧] كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فهم مهما كان عندهم من القوة الكلامية والجدال والبراعة في المنطق والفصاحة إلّا أنهم ليسوا على حق وأنت على حق ما دمت متمسكاً بالكتاب والسنة وفهمت الكتاب والسنة فاطمئن فإنهم لن يضروك أبداً ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] لكن هذا يحتاج إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة فإنك بذلك لا =

والعامي من الموحّدين يغلب ألفاً من علماء هؤلاء المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣][٣٨].

= تخاف مهما كان معهم من الحجج والكتب لأنها سراب كما قال الشاعر:

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً؛ وكل منها كاسر مكسور[١]

فالسراب يزول كذلك هذه الحجج إذا طلعت عليها شمس القرآن وبينات القرآن زال هذا الضباب الذي معهم وهذه سنة الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ: ٤٨] قذائف الحق تدمر الباطل مهما كان.

[٣٨] هذا من العجائب أن العامي غير المتعلم من الموحدين يغلب ألفاً من علماء المشركين، ذلك لأن العامي عنده الفطرة السليمة التي لم تتلوث بالشكوك والأوهام وقواعد المنطق وعلم الكلام. أما العالم المشرك فليس عنده فطرة سليمة ولا علم صحيح وصاحب الفطرة السليمة يتغلب على الذي ليس عنده فطرة ولا علم لأن علمه جهل. إذاً فالناس ثلاثة أقسام:

=

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام الخطابي في مجموع الفتاوى ٤/٢٨.